ومن يد ظالميهم قهر (جا ٤: ١)

تتضخم مشاعر العجز والقلق عندما يشعر المرء أنه فقد السيطرة على مصيره. فأي تهديد يطال الحاجات الجوهرية للإنسان – أي تهديد حياته، وأمنه، وقوته، ومسكنه – يولد لديه أقصى درجات القلق والتوتر. ويتضاعف هذا التوتر عندما يكون التهديد صادراً عن متسلط متجبر لا تعرف الشفقة طريقها إلى قلبه، ولا يوجد لمخافة الله أي موضع في ضميره، ولا يستطيع خطاب الإنسانية العاقل أن يشق طريقه إلى أذنيه. فالقهر الذي يلقاه الإنسان من يد ظالميه هو قهر غاشم لا يرق ولا يلين. وكيف يرق وهو صادر عن قلوب لا تنبض إلا شراً وبغضاً؟!

قد يبدو لمتابعي الأخبار ومحلليها أن ما يواجهه الأقباط في هذه الأيام من قتل، وحرق، وتشريد، وتنكيل، وخطف، وتعرية يندرج جميعه تحت بند "القهر"، وبالتالي يتوقعون منهم أن يتفاعلوا مع شعورهم بالقهر إما بمذلة المنكسر أو بثورة الجريح. إلا أن المسيحي الحقيقي الذي مات العالم له كل يوم وهو للعالم، وعرف المسيح وقوة قيامته متشبهاً بموته في كل محطات حياته، لا يستطيع القهر أبداً أن يثقل لا على أعصابه، ولا على مشاعره وأفكاره، ولا على هويته التي تجددت بالفعل على صورة خالقها المسيح الرب. إنه يتبع أحد أهم قوانين الملكوت وهو: "الذين لهم نساء كأن ليس لهم. والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون. والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه. لأن هيئة هذا العالم تزول" (١كو٧: ٢٩-٣١). وهو إذ لا يستمد أمانه من أباطيل هذا العالم الزائل فإنه لا يتزعزع أبداً عندما ينزع منه المضطهد تلك الأباطيل متصوراً أنه قد قهره. فسلب الأموال، والممتلكات، والعرض، والكرامة، والشرف، بل والحياة ذاتها هو ليس للمسيحي إلا ربح. وإن لم يكن الأمر هكذا لكان قهر الغوغاء قد نال من مارمرقس المسحول في شوارع الإسكندرية، ولكانت وحشية عذاب سبع سنوات قد زعزعت هوية مارجرجس السمائية، ولكانت قساوة ثلاث سنوات تعذيب قد أطفأت في قلب القديسة دميانة لهيب محبتها لعريسها السماوي.

أما السائرون على درب راحيل باكين على الكنيسة رافضين أن يتعزوا عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين فليمنعوا صوتهم عن البكاء وعينيهم عن الدموع؛ فلينتصبوا ويرفعوا رؤوسهم لأن نجاتهم تقترب؛ فليعلموا أن ملكوت الله قريب، وليرفعوا أعينهم وينظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد.

لا تخافي يا وديعة المسيح يا ساكنة وسط الذئاب، لأننا إن كنا غير أمناء فإن الراعي الصالح يبقى أميناً لا يقدر أن ينكر نفسه مسلماً للوحش نفس بمامته. إن كان هذا هو وقت جمع الحنطة إلى مخازن الله فلنفرح ولنتهلل ونرفع رؤوسنا لأن ذلك يعني أنه أيضاً وقت جمع الزوان وحزمه حزماً ليحرق.